آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة التاسعة عشرة، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٧ هـ .ق، ٧٣ – ٩٧

مظاهر المقاومة في روايات بهاء طاهر

رواية «شرق النخيل ... لو نموت معاً» نموذجا

صلاح‌الدين عبدى*

سارا اسدى**

الملخص

يعتبر أدب المقاومة، أدب المعبّر عن الذات الجمعية والهوية للحفاظ على القيم العليا، وتدعو إلى مواجهة الظلم والقهر الداخلي، وبما أن الأدب صورة حية للحركات الاجتماعية والسياسية، لذلك يُرى أنّ الأدباء يستخدمون الفن للإسهام في إذكاء روح المقاومة، وإن كان للشعر مركز الصدارة في أدب المقاومة، ولكن جاءت القصة والرواية منسجما في ذلك مع التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تجتاح المنطقة العربية؛ من هؤلاء الروائيين، الكاتب بهاء طاهر(١٩٣٥م) المصري الذي يحاول تغلغل المقاومة في سلوكيات الحياة اليومية للأفراد في مواجهة الظلم داخليا أو خارجياً في أثره الرائع «شرق النخيل» الذي صدر سنة (١٩٨٥م)، وتركّز على نقد العلاقات الاجتماعية والاختناق السياسي المتردّي الذي يعيشه المجتمع المصري، وبما أنّ المقاومة والنضال من الدوافع الأولى التي تناول فيها الكاتب، لذلك أتى بمظاهر المقاومة المختلفة مثل التحدي، الدعوة إلى المقاومة، انطلاق التظاهرات والاعتصامات، والصمود و... ويرسم فيه الشعب المصري والفلسطيني اللذين يعيشان في ظروف قاسية ولكنهما يثوران

* أستاذ مشارک فی اللغة العربية و آدابها، جامعة بوعلی سينا بهمذان (نويسنده مسول)، s.abdi57@gmail.com
** ماجستير فی اللغة العربية و آدابها، جامعة بوعلی سينا بهمذان، saraasadi90@gmail.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٧/٣٠، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/١٠

ويحملان أشدّ المعاناة، ومن أهمّ النتائج التي وصلت اليها المقالة هي أنه يعرّي المحتلّ الصهيوني الذي يتظاهر بالديمقراطية والتعامل الحضاري من قيمته ويفضحه بأعماله الهمجية الوحشية. تبرز ظاهرة المقاومة معلما واضحا من معالم رواية شرق النخيل، ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نأتي بمظاهر المقاومة المختلفة وأنواعها بالتفصيل، وقد أُعتمدت المقالة على المنهج الوصفي . التحليلي.

الكلمات الرئيسة: الرواية، المقاومة، التحدي، بهاء طاهر، شرق النخيل.

١. المقدمة

المقاومة تعبير عن إرادة الحياة والطموح في تحقيق حضور حر ومستقل وإنما هي مبدأ حياتي أصيل في عقل ووجدان الإنسان وهي بالتالي مبدأ قائم على تعشق الحرية، وإثبات الحضور، والفاعلية، و رد العدوان، والتعامل مع الآخر بإخاء وندية (المليح حلواني،٢٠٠٥: ٢). « فمعنى المقاومة هو الوقوف في وجه الظلم سواء أكان مصدره داخليا أم خارجياً» (لقان،٢٠٠٧: ٦٢)؛ قد حفل تاريخ المقاومة بمظاهر المقاومة الثقافية والمسلحة، والأدب سلاح هادف رفع من مفاهيم الأمة بكاملها؛ وهناك أعمال عديدة و متميزة للشعراء والأدباء الذين لازالت أعمالهم راسخة في الوجدان الوطني ويتخذون الأدب للحث على الصمود و المقاومة؛ فرع من هذا الأدب هو فن الرواية التي تحظى بشعبية كبيرة، لذلك يتخذها الأدباء وسيلة للتشجيع على المقاومة والنضال، وتقوية الروح الصمود في المقاتلين لتواصل المناضلة. ففي عداد هولاء الروائيين، بهاء طاهر، الكاتب المصري الذي بلغ بمظاهر المقاومة المختلفة إلى ذروتها في روايته المشهورة «شرق النخيل»، وصوّر فيها الأزمات الشعبية والمسائل الاجتماعية والثقافية والسياسية، لتقوّمَ بمهمة المقاومة، لكن يركّز تركيزاً أكثر على المسائل السياسية، ولايفارق في أثره الفني واقع الشعب الفلسطيني، و من خلال هذه التجربة يعود إلى الماضي و يصور تاريخ الشعب الفلسيطني و كيفية احتلاله ونضاله من أجل الحرية؛ تعد استلهام الأمجاد وبطولات الماضي، التغني بالوطن والدعوة إلى الإيقاظ ورفض الضيم إما بضرب العناصر المتخاذلة الخائنة أو في مواجهة الاستعمار والعدو المحتل من مكونات الرئيسية

للمقاومة في روايته هذه. تستهدف المقالة إلى تبيين معالم الصمود في نظرة كاتب مصري مقلّ الانتاج مثل بهاء طاهر وضرورة العمل هي إبقاء قضية فلسطين في ذاكرة المصريين ومنوّري الفكر في هذا البلد، خلافا لتقاعس بعض الكتاب عن قضية فلسطين فيسعى هذا البحث إلى الإجابة عن عدة أسئلة رئيسية وهي:

١) ما هي أهمّ قضايا المقاومة التي تناولها الكاتب في هذه الرواية؟

٢) أيّ من معالم المقاومة لفتت انتباه القارئ واحتلت حيزا واسعا من الرواية؟

٣) كيف يصوّر الآخر (العدو) في الرواية؟

الفرضيات

١. أهمّ قضايا المقاومة هي الجهاد والصمود والاستشهاد.

٢. المقاومة احتلت حيزا واسعا من الرواية.

٣. يصور الآخر الصهيونى واقعيا ويفضحه بأعماله الهمجية.

١.١ الدراسات السابقة

حظي أدب المقاومة ومازال يحظى بالعديد من المؤلفات والدراسات، لكن هناك دراسات عديدة لأدب المقاومة في مجال الرواية، مثل رسالة الماجستير تحت عنوان « الراواية الفلسطينية في الضفة وقطاع الغزة » ليوسف مجد ذياب الشحادة بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس فلسطين(٢٠٠٠م) تناولت مسيرة الرواية الفلسطينية في الفترة بين ١٩٦٧-١٩٩٣ في الضفة وقطاع غزة واعتراها من اضطراب داخل الساحة الأدبية الفلسطينية ومن ازدهار خارج فلسطين في أعمال أعلام نحو جبرا ابراهيم جبرا وغسان كنفاني. ورسالة ماجستير« الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض المحتلة بعد اتفاقية اوسلو» لحسين محمد الصليبي بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة(٢٠٠٨م) وصلت إلى أن اتفاقية أوسلو باعتبارها منعطفا تاريخيا أثرت على الشعب الفلسطيني وانعكست آثارها على الرواية الفلسطينية باعتبارها أكثر الألوان الأدبية قدرة على تصوير

الواقع والتعبير عنه وأشارت الدراسة إلى أن القضايا التي وردت في الرواية الفلسطينية هي القضايا الواقعية والتاريخية واستخدمت في مجال بنائها الفني التقنيات السردية الحديثة فيها. وكتاب «الشخصية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة» لمحمد أيوب (١٩٩٦م) وتعرض الى شتّى الشخصيات من العمال والمقاتلين والمرأة والأطفال والشخصيات اليهودية والشخصيات عامة بين الايجابية والسلبية و الشخصيات القصصية بين المتحولة والمسطحة والشخصيات الرئيسية والبطل. كما تناول العديد من الدراسات، أدب بهاء طاهر مثل كتاب «تحليل النصوص الأدبية قراءات نقدية في السرد والشعر» لعبدالله ابراهيم و صالح هويدي (١٩٩٨م) تناولا في الفصل الرابع قصة «بالأمس حلمت بك لبهاء طاهر» فتناولا موضوع الصراع الحضاري برؤية أحادية وتقصى المؤلفان الأبعاد الرمزية للشخصيات وعلاقاتها والفهم الجديد لأبعاد الصراع الحضاري بين الشرق و الغرب. ومقالة « بهاء طاهر وشرق النخيل» المنشورة في مجلة الإبداع العدد٨(١٩٨٣) يتناول نعيم العطية فيها سردانية هذه الرواية معبّرا عن الوصف والحوارو السرد و ينتهي إلى أنّ الحوار يكتسي بالفصحى حيوية العلاقات الإنسانية التي يتعامل معها و يعبّر عنها. ومقالة « الموت والحلم في عالم بهاء طاهر » لشاكر عبدالحميد في مجلة فصول المجلد ١٢(١٩٩٣م) واستعرض قضايا الموت والحلم والسلطة ويذهب إلى أن طائر الموت يتغلب على طائر الحلم ويتجاوزه و بين هذين الطائرين هناك طائر ثالث وهو السلطة وتكون هذه السلطة إما الأب أو التراث وقد تكون السلطة السياسية أو السلطة لشتى المؤسسات الإعلامية والتربوية وهذه القضايا موجودة بشكلها العياني الفعلي وموجودة أيضا بشكلها الرمزي والإستعارى، و «بهاء طاهر وشرق النخيل» لنعيم عطية، والمقالة «خصائص الفنية والموضوعية للرواية في آثار بهاء طاهر » لجواد أصغري المنشورة في مجلة اللغة والآداب العربية (١٣٩٠) تناول المؤلف الروايات والمجموعات القصصية لبهاء طاهر ووصل إلى أن بيئة معظم الروايات وقعت في المدينة ويكون في رواياته منتقدا الاشتراكية وميّالا إلى الحق ونظرته إلى فلسطين تكون واقعية. ولعل ما يميز هذه الدراسة عن غيرها هو جدة موضوعها واستقصائها لألوان معالم المقاومة.

۲. التعاریف و المفاهیم

۱.۲ المقاومة في الرواية

إنّ الرواية قد أصبحت النوع الأدبي الذي يحظى باهتمام متزايد فهي الجنس الأدبي الأقدر على التعبير عن علائق الإنسان المعقدة و«تكون من المصطلحات القرن العشرين»(مرتاض،۱۹۹۸: ۲۴) «وهي من أبرز التعبيرات الفنية التي توحي بنضج الإحساس بالشخصية القومية، وتصوير حيّ لانطباعات الكفاح والمعاناة بشكل يسجل هذه الشخصية ويبلورها، ويبين ملامحها و مميزاتها»(مرابط ومغلاوي،۲۰۱۱: ۹). ومن يتتبع حركة التاريخ المعاصر وجد أنّ فلسطين كانت وتكون بؤرة صراع ومركز توتر دائم، تؤثر عليها الأحداث تاركة بصماتها في مختلف الأصعدة منها الرواية فإنّ الروائيين العرب وغير العرب لم يقصروا في ميدان النضال ضد الصهاينة وأدلوا بدلائهم في هذا المجال على نحو مميز وممتاز وقد ترعرع من أجل قضايا العامة والوطن، وقد انشغلت في مهدها بالاستبداد السياسي والتحرر من الاحتلال.كما أعلن لينين « بأنّ الفن لابدّ من أن ينغمس نفسه في روح الكفاح الطبقي لكي يساعد على إزالة الطبقات وعبودية الإنسان للإنسان» (زيدان،۲۰۰۹: ۲۱۴).

۲.۲ ملخّص الرواية

صدر الرواية «شرق النخيل» للكاتب المصري بهاء طاهر[۱] سنة (۱۹۸۵م) وتحمل بين طياتها صلابة المقاومة الشعبية للتحرر من قيود الإحتلال والإستسلام والهزيمة، وترسم الفضاء الاجتماعي والسياسي المتردّي وما واجهه المصريون في عهد ما بعد النكسة؛ ويجسد أبرز مشكلات الوطن المحتل والأمور التي تسير في الاتجاه المعاكس، كما يصور كل عناصر الهزيمة مثل ضياع الحرية، وسقوط المثقفين، وتردي الأخلاق، والفقر وما إلى ذلك. تبدأ الرواية على لسان الراوي الذي ظلّ بلا إسم حتى نهاية الرواية في ثلاثة فصول، وتُرسّم الأوضاع الاجتماعية والسياسية في خلال قطعة أرض زراعية بصعيد مصر، يتنازع عليها طرفان من قبيلتين مختلفين؛ ينتسب الرواي إلى إحدى العائلتين، تتكوّن العائلة الأولى من أخوين هما أبو

الرواي الذي ظلّ بلا إسم أيضا حتى نهاية الرواية وعمه ولكل منها عائلة صغيرة، تتشكّل العائلة الأولى من « ابو الراوي، الراوي، فريدة، فاطمه، وأمّهم» والعائلة الثانية من «عمه، حسين ومنيرة» وكان من المقرر أن تزوّج الراوي بابنة عمه وفريدة بالحسين. (ولكن كلاهما فشلا في هذا) والعائلة الثانية، تتكون من الحاج صادق وبنوه، (حتى ختم بموت حسين وأبيه). يتخذ بهاء طاهر هذه الأرض التي سمّي بأرض الحديقة رمزاً للأرض الأكبر وهو مصر، وفي خلاله يصور الحياة الطلابية وعلاقة بعضهم ببعض على لسان الراوي ويعرف الطلاب الجامعية وهم (سوزي، ليلى، سمير، عصام)، ومن خلال هذه الشخصيات يصور المظاهرات والاعتصامات الطلابية والمثقفين واعتصامهم في الميدان التحرير احتجاجا على الأحكام المتشددة، والمطالبة بالتعجيل للحرب مع اليهود والحرية من نير الاستعمار، ثم يحكي تاريخ الشعب الفلسطيني كي يسمح لقارئه أن يسيطر على تاريخه ويبث في خلاله روح الصمود في نفوس الناس، وضرورة دعم المقاومة أو الالتحاق بها.

٣. عرض الموضوع

روايات بهاء طاهر روايات إنسانية تطرح معانة البشر ولاسيما الصراعات الفكرية والمادية التي يعيش تحت وطأتهما الإنسان الفلسطيني والرسالة الإنسانية التي يتوخّى بهاء طاهر أن يبعث بها إلى العالم هي تعلقها والتزامها بقضية فلسطين وفيما يا نتناول بالبحث معالم المقاومة ومظاهرها في المجال الفردي والقومي والوطني بأبعادها المختلفة:

١.٣ الوعي التاريخي

إنّ الميراث التاريخي يعتبر من أهمّ ممتلكات الأمم والشعوب؛ والشعوب التي لا تعرف تاريخها تفقد هوّيتها، فإن التعرُّف على المفاخر ومكارم الأمم الماضية يُعدُّ عاملا أساسيا لترسيخ فكرة المقاومة، وإنَّ بهاء طاهر لم يكن يغفل عن هذا الأمر ويشار إلى الدور الهام الذي أولاه الوعي التاريخي لمواصلة الكفاح الوطني، ويرسم العلاقة بين وعي الإنسان وتاريخه الماضي، ويضرب

أروع أمثلة عن المناضل المثقف ويطرح قضية «سمير» الطالب الجامعي الذي قد وعى التاريخ بشأن مصير «عصام» الطالب الفلسطيني الذي بدأ بتعريف قضية احتلال فلسطين، وقرّر أن يكتب عن فلسطين: «***كتبت كلمة صغيرة في إنفعال حزني، كتبت عن استشهاد عصام...***» (طاهر،۱۹۸۵: ۹۱) وفي بعض الأحيان يصوّر حزنه على عدم تعرُّفه بالتاريخ: « يكلّمني أنا الجاهلة عن السياسة واليهود وسيناء وفلسطين وأحيانا يبكي. سمير، سمير الذي لم يكن يعرف غير الضحك والفرح بعض ساعات يبكي وأنا...أنا خائفة عليه...»(م.ن: ۱۹)

يشير المؤلف إلى الدور الريادي للوعي التاريخي في قضية سمير، سمير الذي لم يكن يقضي أيامه في اللهو، بعد تعرفه بعصام و وعيه بقضية فلسطين وكيفية احتلالها، كان يصبح من الناشطين بالنضال، حتى يؤبّخ نفسه بجهله في قضاياه الوطنية، أي (السياسة واليهود و...)، وفي بعض المواضع يصور الكاتب وعيه بالقضايا التاريخية، ويرسم قضايا احتلال فلسطين على لسان شخصيات الراوية وربما يتخذها كوسيلة للدعوة إلى تحريض العواطف الوطنية والإنسانية للإنهاض والمقاومة، وأشار إلى الواقعة التاريخية لقرية دير ياسين[۲]: « ولكي يجعل اليهود بهذه الهجرة بدأوا يذبحون الفلسطينيين في دير ياسين وفي غيرها ليلقوا في قلوبهم الرعب»(م.ن: ۹۰). أو أشار إلى الوعي التاريخي بصورة مباشرة: « يقال وزن الإنسان واحترامه بقدر دقة علمه بقصص الأجداد ومعرفته بالقرابات والأنساب وبتاريخ الأسر والمواقع. تصنع هذه القصص العالم الخاص لبلدتنا. من يعرّفها فهو منّا ومن لا يعرّفها فهو غريب»(م.ن: ۳۴).

لا شكّ أنّ الوعي من أهمّ ما يميز الإنسان به والكاتب هنا يشير إشارة مباشرة إلى التعرُّف بالتاريخ، وينتسب الاحترام و وزن الإنسان إلى ميزان المعرفة بتاريخه وماضي أجداده، ويعرّف المواطنين الذين يعرفون تاريخهم بأهل بلادهم والذين لا يعرفون تاريخ بلادهم بالغرباء.وإنّ المتلقي الحصيف يمسك برأس الخيط ويدرك أن أدب بهاء طاهر لايمكنه أن يكون خطبة حربية أوبيانا حركيا أو حزبيا أو سياسيا أو عسكريا بل كان نبع من صميم عقيدته ولم يكن يوما يتفرّج من شرفته الأنيقة وجاء بشعارات فضفاضة فقط. وبما أنّ الأدباء ومنهم بهاء طاهر يمثلون دورا رياديا ونبراسا للاقتداء والهداية، يشعرون الخطر المحدق بالأمة فهم يرسلون مجساتهم ليتحسسوا مكامن الخطر قبل وقوعه وأول مكمن هو تشويش الهوية و وعي الشباب

من جانب العدو ليفقدوا جذورهم فانطلاقا من هذا يرسم الكاتب طريق الكفاح والنضال بتحسس الوعي التاريخي.

٢.٣ ترسيم صورة ظلم المحتلين

قد يشرع الأديب أقلامه قبل أن يمتشق المحاربون سيوفهم لينبهوا أولي الأمر وأصحاب القرار على أن الدواهي ستدهم وجياد الغزاة قد تدق أرض الوطن بقوة فتناول الكاتب في أثره الظلم داخليا وخارجيا، أي من جانب السلطة وظلم المتجاوزين المستعمرين، لكن يصوّر الظلم الداخلية أكثر، لِكبت الثورات والنشاطات السياسية؛ ربما هدفه من هذا الأمر، ترسيم تخاذل حكام البلاد في مواجهة الاحتلال وصمته أمامهم. لذلك يتخذ اتجاه الواقعي النقدي، ويصور اشتعال الثورات واعتقال الأدباء وتهجيرهم قسريا: « تغيروا. المريض مريض والقرفان قرفان والذي يخرج في الإضرابات والذي قبض عليه البوليس والذي رحلوه من البلد...»(م.ن: ١٧)؛ وفي كثير من الأحيان يصوّر لنا عمليات وحشية رداً على تلك المظاهر التي نفذّتها الحكومة بحق المتظاهرين الذين ثاروا على النظام: « دفع العسكري الواقف على السُلّم زميله حتى كاد يقع وداس على المرأة العجوز وهجم على الطالب ورفعه من رقبته وحاول الطالب أن يقف وهو يقول بلادي بلادي و لكن العسكري أخذ يجره على ركبته ويقول له أخرس» (م.ن: ٢٦).

لكن عندما تناول ترسيم ظلم المتجاوزين المستعمرين، يصور الواقع المؤلم الإرهابي[٣] أكثر بكثير، ويصوّرهم على أبشع الوجه: « جَمَعوا مَن في القَرية من الشُيوخ وصفوهم وقوفا في الشمس، في الصيف، وقالوا ستظلون واقفين هنا حتى تظهر البنادق. وتناوب الإنجليز حراسة أسراهم الواقفين الممنوعين من الجلوس بالنهار والليل. ومرّ اليوم الأول ولم يتكلم أحد. وفي اليوم الثاني طلب الأسرى الماء فطلب الإنجليز البنادق. وعندما سقط الضعاف على الأرض اعياء وعطشاً لم يسمح الإنجليز برفعهم من مكانهم. وهكذا مرّ اليوم الثالث دون نوم ودون

جلوس ودون طعام، و زاد عدد من عجزت أقدامهم عن حملهم. وفي اليوم الرابع بدأ الشيوخ يموتون» (م.ن: ۹۰).

إنّ الكاتب سجل هذه الأمور ليبذر في نفوس الناس عوامل القهر والظلم للمحتل الصهيوني واتباعهم حتى أصبحت فلسطين صورة للمأساة البشرية، ويرسم المجازر الجماعية التي يرتكبها اليهود أمام أنظار العالم والتنديد بصمت المجتمع الدولي على جرائم الصهاينة التي تهدد الأبرياء وتلقي في قلوبهم الرعب والوحشة لتحقيق أغراضهم السياسية، ليصوّر صورة البشعة للمحتلين وتحريض الناس على الإنهاض والمقاومة.

لم يكن يكتفي بهاء طاهر بترسيم ظلم المتجاوزين ويأتي بالاستغاثة والاستنجاد في خلال الرواية، ويمتاز بصدق العاطفة وفوران الإحساس، لكن لم يأت بميزات الاستغاثة واستخدم الأسلوب الخطابي والمبالغة في مدح المستغاث به، بل يشكو وربما يحرض الدول عامة والدول الإسلامية خاصة على تسليحهم بالسلاح لاستنجادهم ومدّ يد العون لهم في الجهاد ضد الإسرائيل. «امريكا تسلح اسرائيل ولا أحد يعطينا السلاح» (م.ن: ۹۴). يلقي الكاتب هذه الجملة على لسان عامة الناس الذين يشاركون في المظاهرات ضد الحكومة ليثبت حاجة الناس الماسة للمساعدة وترسيخ فكرة المقاومة للقضاء على العدو الغاشم. إنّ المحتل الصهيوني يتظاهر بالديمقراطية والتعامل الحضاري يعرّض الشعب الفلسطيني لكلّ أنواع التمييز دينيا واجتماعيا وسياسيا فإذن كاتب في طراز بهاء طاهر يعرّي المحتل وجرائمها المتعددة ولا يكتفي بالتصوير الجامد للمحتل ولكنه حدّد الأسباب التي خلّفت هذا الاثر.

۳.۳ دور النساء في المقاومة

إنّ الروائي على وعي بدور المرأة في الرواية لأنها تقف بجانب الرجل تكاتفت معه رحلة الكفاح وتؤازره في نضاله فإنَّ المرأة متواجدة في كافة مجالات الحياة، وهي كعضو من أعضاء المجتمع تشارك في الحركات النضالية؛ تثبت وجودها وتدافع عن كرامة بلادها، لذلك تحتل مساحة كبيرة في ميدان أدب المقاومة وقد لعبت أدوارا هامة في كلّ قضايا مصيرية. قد تناول

الكاتب حضور النساء، إشارة إلى الدور الخطير الذي تؤديه المرأة في المجتمع، ويرسم حضور النساء جنبا إلى جنب كباقي آحاد الأمة، وثأرهن على تلك الأوضاع المتردية بحضورهنّ في المحاضرات: «كانت تجلس وسط مجموعة قليلة من الفتيات تتشابك أيديهن ويهتفن مع الجميع (إصحي يا مصر)»(م.ن: ٩٥).

في هذه العبارة يتناول بهاء طاهر شخصية ليلى[٤] المناضلة بحضورها في المظاهرات؛ وفي أثناءه يشير إلى حضور النساء و الدور الريادي الذي تستطيع أن تؤديه المرأة للتغيير بصمودها في المجتمع.

ثم تناول من خلالها قضية الحب والزواج و يجعلهما خاضعا في سبيل الهدف الأسمى وهو الوطن، و يرسم شخصية ليلى التي رغم حبها للراوي، كانت تدخل في القضايا السياسية وترفض القيد وتفرض على نفسها الحضور في المظاهرات، إذا خاطبها الراوي وسمير في عودتها إلى البيت مساء، ثم عودتها إلى الاعتصام في الصباح، ترفض ليلى وتطرح قضية الوطن و أهميتها في النفوس: « ليس ملك سمير ولست ملكك ولا ملك أحد...اليوم عرفت شيئا من هؤلاء الذين يجلسون هناك. شيئا أهم منك ومني ومن الحبّ. شيئا يستحق أن نتعذّب من أجله»(م.ن: ٩٩).

لقد أراد بهاء طاهر من خلال شخصية ليلى المناضلة أن تؤكد على حرية النساء في تصرفاتهن وأفكارهن والطريق التي اتخذنها للحياة، طالبة بحقهن في الحياة والحرية. كما يُرى أنها ترفض اقتراح سمير والبطل وتريد أن تثبت توعيتها وثورتها حفاظا على مستقبل بلادها. فصورة المرأة تبرز وتألق في الرواية هذه ويكون لها دور قيادي وفي الخطوط الأمامية ضد العدو الصهيوني فصوّر الكاتب سمير بطلة الرواية مع أنها متميزة عن شقيقاتها العربيات ولكنّها تحترم التقاليد والعادات المتوارثة وكان نشاطها يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف الاجتماعية التي تعيشها ولم تكن خارج من اطارها.

۴.۳ التحدّي والصمود

المقاومة هي إحدى وسائل الحياة في الدفاع عن نفسها. والتحدي واضح لكلّ الناس بمختلف ميادينهم ومناهجهم، ويركّز أيضا الكاتب على ضرورة التحدي ومحاربة الظلم والقهر في البعد الوطني والقومي والفردي، ويصور الفرح مع كلّ مشهد يتحدي ويقاوم ولو حتّى ختم بالموت، ذلك الفرح الذي ملئ بالحزن من جهة ومن جهة أخرى بالأمل والتطلع إلى مستقبل منير. إنّ أدب المقاومة لايزال يحاول توطيد أواصر العلاقات بين آحاد الأمة للحصول على الاستقلال، لذلك يصف ثبات الأبطال ومواقفهم البطولية، لتقوية الروح النضالي التي تأبى الذل والاستسلام متمسكا بالحرية والنصر.

في بعده الوطني يتناول التحدي الفلسطيني وصموده، والموت من أجل الوطن...هنا لا يريد الكاتب أن يكون الموت، صورة من صور اليأس والحزن، إنما يريد أن يصوّر صورةً أكثر حيويّة بتناول قضية الموت من أجل هدف أسمى وأعلى، رغم كل أساليب القتل والضغوط التي يتعرضون لهم، توكيداً على روح الاستمرار والمقاومة: «بدأ الناس يهاجرون و رفض أبو عصام. قال لمن معه إن كان علينا أن نموت فلنمت ونحن ندافع عن أرضنا ولا داعي لأن نموت ضحايا كما مات آباؤونا. كان واحداً ممن حملوا بنادقهم وأجسامهم أمام دبابات اليهود وسقطوا هناك دون أن يذكر أسماءهم أحد »(م.ن: ۹۱).

إنّ الكاتب يؤكد على ضرورة التحدي، ويلوم الذين يهاجرون أو يبيعون بلادهم، ويعلّي شأن أولئك الذين يموتون في سبيل الأرض والوطن؛ ويتحدون ويموتون من أجل الدفاع عن وطنهم ولو حتى آل إلى الموت. فإنّ الكاتب يشير إلى الصمود الوطني في قضية فلسطين ليدخل في قلوب المقاتلين الفلسطينيين بارقة الأمل لتواصل المقاومة والحرية، ولو حتى انتهى باستشهادهم.

كذلك كان يرسم التحدّي والصمود في البعد القومي بمظاهرات الطلاب وصمودهم في الاعتصامات رغم تعذيباتهم البشعة من جانب الحكومة، و ربما يرسم إنتفاضة الحجارة من جانب الطلاب الجامعية إشارة إلى انتفاضة فلسطين « و فجأة اختلط صوت الميكروفون

بصوت أبواق عربات الشرطة بصوت الطلبة الذي إرتفع وهم يغنون بلادي بلادي. و جرى البعض إلى أطراف الميدان يجمعون حجارة من مشروع الكوبري »(م.ن: ١٠١). كما نرى أنّ المؤلف يضرب أروع أمثلة من الطلاب الذين يناضلون ويتحدون إما بالكلمة وإما بجمع الحجارة، أي مقاومة المسلحة لإثبات صمودهم في سبيل القيم الأعلى وهو بلادهم لاستنهاض الهمم وتقوية روح التحدي والمقاومة.

ثم في بعده الفردية يرسم مثلا شخصية الراوي، الشخصية التي تتكامل وتنضج، لاسيما بعد وعيه بخطورة الاحتلال، و هذا الرفض والتحدي ظهر حتى في حياته الفردية، عندما أجبره أبوه بتقبيل يد الشيخ الذي يعتقده به، ورفض الراوي تقبيل يده، وتؤكد على رفضه بتكرار لفظ « لم أقبل يده »، ويظهر فرح أمه في صورة جميلة زاهية بتأكيد كلامه بعد تشجيع برفضه «تقبيل جبين إبنه»، بتهديده إن تقبل يده، لم يكن ابني: « فجريت وذهبت لأمي وبكيت وقلت لها لم أقبل يده.. لم أقبل يده. فقبلت أمي جبيني وقالت لو قبلت يده ما كنت ولدي»(م.ن: ١٠٤).

وقد استجلّى بهاء طاهر، الصمود في بعده الفردي، في قضية ليلى لحضورها الثابتة في المظاهرات: «ليلى بدأت اليوم فقط. ولم تبدأ سرّاً و لكن علناً. جاءت إلى الميدان بعد الظهر وبدأت تتحمّس للاعتصام أكثر من الجميع. ليلى لم تشترك معنا قبل اليوم في أي نشاط رغم أني حاولت معها. والآن لا تريد أن تتصرف من الميدان. معظم البنات انصرفن قبل الغروب ولكني فشلت في إقناعها بالعودة للبيت. أرجوك أن تساعدني»(م.ن: ٨٧-٨٦). ليلى تلك الشخصية التي لم تكن تتفكّر في القضايا السياسية قطُّ، تدخل في المظاهرات بصورة علنية بعد وعيها بالقضايا الداخلية والخارجية لمصر، وتصمد في الاعتصامات وحتّى لا تنصرف عن اعتصامها في الليل رغم عودة باقي البنات مساء إلى بيوتهن.

المقاومة هي وليدة عقيدة جهادية(عبدالحكيم،٢٠٠٤: ٩٠٧) وهي ليست شهوة في العنف والقتل والاعتداء على الآخر، إنما هي دفع الأذى والشر والاحتلال عن الذات الإنسانية (جمعة،٢٠٠٩: ٦). وهي أداة مهمة لتغيير متطلبات السياسية و الإجتماعية و اتخذها الأدباء في طليعةكافة مجالات أدب القاومة، لاستنهاض الهمم وتقوية الروح النضالية؛

وقد برز أيضا في هذه الرواية لكن بصورة متفاوتة، إذ إنّ الكاتب يتخذ الكناية طريقا لإثارة الهمم والدعوة إلى المقاومة و التحدّي،كما يرى في العبارات التالية، إذ خاطبهم الطلاب الذين لم يكن يدخلون في الإضرابات بالطلبة الجبناء: « ألا تعلم أنَّ هناك اضراباً ومظاهرات؟ لم يبق في الجامعة سوى «الطلبة الجبناء» كما يقول زملاءنا المضربون... »(طاهر: ٧) ويصوّر هذا الأمر في المواضع كثيرة « سأذهب إلى المحاضرة. سأذهب إلى زملائي من الطلبة الجبناء كما يقول من يهتفون في الإضرابات» (م.ن: ١١) إذن الصمود والتحدّي من أهم المفردات التي تخطر بال المتلقي وتحتلا حيزا واسعا من الرواية و م نبالغ اذ قلنا لانجد صفحة لم يأتي فيها هاتين المفردتين أو مفردة المقاومة.

٥.٣ الشهادة والاستشهاد

كانت الشهادة من أسمى وأهمّ السبل التي يتخذها الإنسان في سبيل العقيدة وهي اختيار الموت واعيا في سبيل القيم السامية« بدافع ذاتي بعيد »(معروف وكياني،١٤٣٣: ٤٢)، والوطن من أعز ممتلكات الإنسان، والشهادة في سبيل عزته واستقلاله واجب على الإنسان،كوسيلة لرفض الهيمنة والسيطرة عليه، لهذا عمد أدباء المقاومة ومنهم بهاء طاهر إلى استخدامها في روايته، ويرسم الشخصيات الذين يثورون ويموتون من أجل الدفاع عن وطنهم المتحل والحرية من نير الاستعمار. يتناول الكاتب الشهادة في المواضع الكثيرة، على سبيل المثال إذا يطرح قضية فلسطين، ويصوّر شخصية *عصام* الذي كان طالبا جامعيا وناشطا في المقاومة الفلسطينية، وآثر الشهادة كأبيه وقدّم دمه لدفاع عن وطنه: « ذات يوم كنت أمسك صحيفة يومية أقلّب فيها ففاجأتني صورته بوجهه المحيل ونظارته الطيبة وتحته العبارة التالية الشهيد الفلسطيني أبو كذا وبين قوسين عصام الفلاني الطالب بهندسة القاهرة»(طاهر: ٩١) أو في هذه العبارة: «كل ما فعله إنه ذهب هناك مثل أبيه ومثله قرر ألا يموت ضحية وأن يعود دمه لأرض وطنه »(م.ن: ٩١).

الراوي سلط الضوء على شخصية *عصام* على باقي من شخصيات الطلاب الروائية، إذ إنّ كل الشخصيات التي تدخل في حركة المقاومة والنضال لم تكن تهتم بالسياسة والوطن في بداية الأمر، لكن جاءت شخصية عصام، شخصية متكاملة يقرأ الكتب ويدخل في القضايا السياسة والوطنية دون التكلُّم مع أي شخص، لكن آثر الشهادة، لإبراز اختياره الواعية بالشهادة في سبيل وطنه، أو إذا يتناول قضية حسين وأبيه في الدفاع عن أرضهم: « عندما مدّ عمك يده ليبعد حسين عنه ظنوه سيخرج مسدسه من جيبه فانطلق الرصاص وانكفأ الأبن يحضن الأب والأب يحضن الأب والدم يجري مع الدم. رجع دم الابن إلى أبيه ورجعا معا لتراب الأرض متوضئين مصليين طاهرين». (م.ن: ٦٨-٦٩). ويقول الرواي في معرض حديثه عن الموت « لايأتي الموت حين يودُّ الانسان أن يموت. لايأتي الموت لمجرد أن الإنسان يكره حياته» (م.ن: ٩٣) كأن المقاتل الفلسطيني أشرف من البشر لأنه موته بيده ومتى أراد أن يموت مات ومتى أراد أن يبقى بقي وهذا هو سرّ المقاومة والاستشهاد.

يجد الكاتب في تناول الشهادة في الحياة الشخصية للأفراد، حافزا من حوافز النهضة والقفز من غفوتهم وسببا من أسباب التواصل مجددين مآثر الرجال، الذين يحافظون على أمانة الأجيال الماضية، ويحلون الاستشهاد للدفاع عن قيمهم.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٦.٣ الأمل إلى المستقبل

إنّ أمل إلى المستقبل يشغل حيزاً هاماً في النهج الهادف لحركة المقاومة؛ « وقد كان شعر المقاومة وأدبها على العموم، متفاعلا منذ البدء»(كنفاني،١٩٦٨: ٨٥) وكان ذلك دخولا في معجم الثورة وتدعيما للفعل المقاوم في الوطن المحتل ليأخذ الأدب في التوافق مع كل خطوة من خطوات العطاء، وفي الدعوة إلى تصعيد العمل الثوري والوصول به إلى أعلى وتيرة ممكنة(سقيرق،لا تا: ٦٤). بما أنّ الأمل و الرجاء يعتبران من أهمّ ميزات أدب المقاومة، ظهرت هذه الميزة في الرواية هذه ظهورا واضحا، إلا أنّ بهاء طاهر رسم لوحة الحزن الفجائية (خاصة في طرح قضية فلسطين) ليخرج بعد ذلك إلى رسم صورة الأمل المستقبلية. لأنّه رأى

بعينيه المعاناة الشعب المصري، كما رأى الكفاح المستمر للشعب الفلسطيني، لكن يطرح الأمل من خلال الصمود والوحدة الشعبية إلى جانب التأكيد والإصرار على أن النصر والحرية قادمان لاريب؛ يمعن في بدء الرواية التكلُّم عن الموت، لكن بعد حضور شخصياته الروائية في حركة المقاومة والنضال وعلاقته بالجماهير، يعود إلى الكاتب بارقة الأمل ويصوّر إقباله على الحياة بروح إيجابية: «ثم إلتفت سمير إليَّ وقال- وحتى لو فشل هذا الاعتصام فسيكون غيره غداً أو بعد غد إلى أن يصبح الاعتصام مصر كلها فتزحف للقناة وتعبر. سيحدث هذا صدقني. و سيحدث أكثر.» (طاهر: ٩٥) وهذه الإيجابية واضحة في العبارات والكلمات التي ألقاها المؤلف على لسان سمير، باستخدام الفعل المستقبل(سيكون غدا، سيحدث) وتأكيده بألفاظ (صدقني، أكثر، وكلها). وربما يجعل هذا الاعتصام هادفا أيضا، إذ يأتي بلفظ (حتّى لو)، في الواقع إن الكاتب يؤمل بهذا الاعتصام أيضا، ليدخل في قلوبهم بارقة الأمل.

أو إذا يتناول قضية احتلال فلسطين، وهو يموج بالحرية والاستقلال والعودة إلى أصحابها الحقيقي، لحث قطاع واسع من العرب وتجنيدهم من أجل الإسهام في معركة التحرر الوطني والاستقلال: «نحن سنحرّر لكم الوطن السليب ونعيدكم إليه رغم أنوفكم»(م.ن: ٨٩).

بما أنّ الأساس في رواية بهاء طاهر، تقوية روح الثورة والتمرد للتطلع إلى المستقبل الزاهر، لذلك لم يغفل عن هذه، ويأتي بألفاظ الرفض بصورة مباشرة لتأكيد على الصمود والثبات« أرفض أن أسلم إني هزمت »(م.ن: ٩٩). هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها الكتاب بذكر كلمة الرفض صراحة وهو يعمد إلى تأكيد رفض الخيبة واليأس؛ أن الرافضة (ليلى) لا تهرب من واقعها، إنّما هي تواجهه دفاعا عن غرورها، « أني لم أكن أحبك و إنما كنت أحب غروري »(م.ن: ٩٩). لاشك أن الكاتب أكثر تطرُّقا إلى موضوع الحب، ويصور الأمل تدعيما للروح المقاوم حتّى في الحياة الشخصية للأفراد.

أو يجعل الأخذ بالثأر طريقا لإظهار أمله إلى المستقبل، ويتناوله في البعد الفردي، إذ رسم قضية قتل حسين وأبيه بالرصاص وصمت الناس في هذا الأمر، ومنيرة التي لم تكن تؤمل بثأر أبيها وأخيها، لذلك قالت بأنّها تربي ولدها لثأر دم أسرتها: «تقول إنّها تربّى ولدها ليأخذ بثأر

أبيها وأخيها»(م.ن: ٧١). «منيرة تقول لو شنقوا أولاد الحاج صادق كلّهم وبقى منهم واحد فسيأخذ منه ابنها الثأر»(م.ن).

لاشك أنَّ من يتعرض للظلم لأجل مَن لا يوجد يدافع عنه ويؤخذ بحقوقه المهضومة، يجد في نفسه الكثير من الغيظ، و من الصعب شفاؤها و زوال أثره، وبالتالي يلجأ إلى الإنتقام والثأر، ويبرز في حياة الفرد اجتماعيا كان أو سياسياً، لكن يتناوله الكتاب في حياة الشخصية للأفراد، ليتخذه سببا من أسباب التحريض إلى مجابهة الصهاينة وعاملا من عوامل المثابرة من أجل الوصول إلى أهدافهم السامية. ترسخ وتأصل التشوق إلى الغد الباهر وإذ كان غير هذا فلنجد الجيل الفلسطيني معزولا منكفا على ذاته ومخيبا وفي هذه الظروف القاسية البالغة والشرسة يتشوق الفلسطيني لملامسة تخوم الحرية والعدالة والواقع يملي عليه غيابهما فلهذا اتخذ الأمل إلى المستقبل سلاحا لمقاومته.

٧.٣ الاحتفاظ بالتراث

إنّ التراث من أغنى المصادر التي يلجأ إليه الأديب والشاعر وهو من عناصر الثقافية التي تتناقل من جيل إلى جيل آخر والأسلوب الحياتي المتميز الذي ترى من خلاله الجوانب الثقافية المختلفة ويراه البعض صورة معكوسة عن الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع في ماضيه وحاضره. يرى حسن حنفي أنّ «التراث كلّ ما وصل إلينا داخل الحضارة السائدة...التراث هو الوسيلة، والتجديد هو الغاية التي هي المساهمة في تطوير الواقع»(حنفي، ١٩٨١: ١) يلجأ الأديب إلى التراث عندما يكون المجتمع مأساويا.فيستعير الشخصيات البطولية والأسطورية، و كيف أن المجتمع في السابق تخطّى أحداثا أشد جسامة مما يعيشه الآن، لاستثارة الهمم(أشقر،٢٠٠٥: ٣٦، بالتصرف). وربما من أجل الحفاظ على مقومات الأمة، أو التأسف على الماضي المجيد الذي صنعه السلف، لذلك يُرى أن بهاء طاهر يستلهم بالماضي ويكشف عن البطولات الجماعي وكفاح الشعب المصري متمثلة في شخصية جدّ الراوي الذي يحاول ليدافع عن شبر من الأرض و يصلح تلك الأرض الخرابة من العدم،

ويدخل الطرق الصعبة: « لكن الأرض صحت، و الزراعة صحت، و اخضرت الأرض التي كانت خرابا»(طاهر: ٣٣)، وفي أحيان كثيرة تأتي الكاتب بالرفض صراحة:«لم يجرؤ أحد أن يعتدي على أرضه أو يسرق له جرنا»(م.ن: ٣٣) ثم يأتي بالتفصيل ويحكي حكاية أب الراوي الذي يعاني من الظلم، لكنه يتعايش معها، دون رغبة في تغييرها أو محاولة أمامها« لقد بدأوا اليوم بأرضي وسيجورون غداً على أرضك. أنت لا تريد أن تفعل شيئاً ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها. لن أطلب منك شيئاً»(م.ن: ٣٢). إذن الجدّ هو الحافظ على هذا الرصيد التاريخي الهائل من المقاومة وكان التاريخ يقاوم سياسة النسيان وتخريب الذاكرة الوطنية الجمعية من خلال الرموز والابطال الماضية. ويحيا عن طريق قضية الارض هذه عاطفة الثأر الملتهبة والرغبة العارمة في الانتقام طريقا لإيقاظ الوجدان العربي في مواجهة الظلم و الاحتلال وتصوير كفاح الأجداد للدفاع عن وطنهم.

٨.٣ انطلاق المظاهرات والاعتصامات

إنّ المظاهرات والاضرابات تمثل القوة الكامنة في ضمير الشعب الفلسطيني وتحديه للاحتلال الصهيوني وتوضح هذه الصورة في بنية السرد الروائي في الرواية هذه. كثيرا ما يتحدث بهاء طاهر عن الإضرابات والمظاهرات التي قامت في ميدان واحد وهو ميدان التحرير رمزاً للوحدة الشعبية؛ تناول في بداية الرواية انطلاق التظاهرات من جانب الطلاب الجامعية إلى حد ما: «كنت عند ميدان التحرير وهناك كانت مظاهرة...»(م.ن: ٧) لكن عندما صوّر الوعي التاريخي والمقاومة لدى الجماهير، ولجت في قلب الشاعر بارقةُ الأمل، و يرسم إنطلاق المظاهرات والاعتصامات بصورة واسعة: «كان هناك زحام من الطلبة والأهالي الذين يقفون في مجموعات متناثرة في قلب الميدان المحاصر»(م.ن: ٩٤). غالبا ما كانت تنتهي المظاهرات المحلية والعفوية باشتباكات دامية مع الحكومة، إلا أنّ النضال كان يستمر ويتعاظم على الرغم من اعتقال النشطاء السياسيين والمعادين للمحتل الصهيوني. ويصوّر جرأة الناس وصمودهم

طويل النفس رغم وسائل التعذيب لإبقاءهم في المظاهرات، لترسيم صمودهم مطالبةً بحقوقهم وتغيير المنهج الذي إتخذه الحكومة.

أو يشير في أثناء تناوله للمظاهرات والاعتصامات إلى العبارات المناهضة التي تجري على لسان المتظاهرين للتعبير عن أزمات الداخلية محرّضا ضد حكومة مصر؛ تمحور الشعارات على ثلاثة محاور أساسية: المحور الاقتصادي التي تتجلى في تسعير النفقات ووصول سعر اللحم إلى جنيه:«كيلو اللحمة أصبح بجنيه... »(م.ن: ٩٤)، المحور السياسي التي يوجّه نقدا لاذعا للسياسات الخاطئة والاغتيالات التي تتخذها الحكومة تجاه شعبها في صمتها أمام العدو المحتل، وعدم تسليحه تجاه إسرائيل « أين السلاح؟»، « السلاح موجود وأنا أعرف »(م.ن: ٩٤). أو المحور الاجتماعي التي تجسد في مخالفة عامة الناس لحضور النساء في المحاضرات « أنا ضد اشتراك البنات في الاعتصام والمظاهرات »(م.ن: ٩٤)كوسيلة لانتقاد المجتمع، وبما أنّ الكاتب يبدي هذا الكلام من جانب عامة الناس في المظاهرات، لذلك يرسم عقائد الناس وطغيان العقائد التقليدية على أفكارهم، كما يرسم تقدم المجتمع نحو الحرية إما في الأفكار وإما في طريقتهم التحررية بحضور النساء في المظاهرات.

٩.٣ التضامن والوحدة

يرسم الكاتب التضامن الشامل الذي ظهر من قبل الشعب طلبة أو ناسا، وأشار إلى تحقيق الحرية من خلال تحقق الوحدة الشعبية المصرية؛ ويصور هذا التضامن صورة جماهيرية في الرواية كافة، خاصة في ختام الرواية: « وكان هناك عدد كبير من الناس، من الطلبة ومن غيرهم » (م.ن: ٩٩). لكن يرسم هذا التضامن أكثر بكثير في الطبقة المتعلّمة: « و وجدت يدي تشتبك مع يد ليلى ومع يد طالب لا أعرفه وبدأت ليلى تغني معهم بصوتها المبحوح بلادي بلادي. وهزَّ الطالب الذي إلى يساري يده المرفوعة وقال لا تسكت. لا تخف غن بصوت عال. فغنيتُ بلادي.. بلادي.. أغلى درة.. مصر حرة.. بلادي..عيشي حرة..يا بلادي »(م.ن: ١٠١). ربما قصده من هذا، أنه يريد أن يصور معرفة الطبقة المتعلّمة تجاه خطر

الاحتلال قبل عامة الناس، حيث كانوا مصممين على توسيع نشاطهم السياسي، ومن خلاله يطرح الأمل بأنه من خلال تضامننا وصمودنا في المقاومة فإنّ بمقدورنا أن نغير الأوضاع.

إنّ الرسالة التي تريد الرواية هذه تبعثها هي التضامن بقضايا الوطن بإيمان صداق هو الخلاص من مشاكل الأنانية و الفردية وعن طريق هذا التضامن والتكاتف بالعمل الوطنى الصادق يؤمن البطل وهو سمير الذي لم يكن يعرف سوى البطالة والتسكُّع يضيء تفاؤل يردُّ للشباب اعتباره وينفي منه تهمة الضياع والتبدد.

إحدى وظائف أدب المقاومة هي تحريض الناس إلى الصمود عن طريق التضامن والتعاطف والوحدة وهذا هو الرصيد القوي لاستمرار النضال في وجه المعتدين.(عطية، ۱۹۸۳: ۱۰)

۱۰.۳ الاستهزاء من الخَوَنة والتقليل من شأنهم

لاشكّ أنّ العوامل الداخلية الخائنة، هم الذين يساعدون المحتلين في داخل الأرض المحتلة، ووظيفة الأدب إيقاظ وجدان الإنسان تجاه أرضه كي يعود إليه الغيرة في حق مواطنيه، وأنّ الكاتب هنا أشار إلى أولئك الذين يساعدون الإنجليز واليهود ويحطّ من شأنهم باستعمال لفظ «الكلب» و واضح أنّ الحط من شأنهم تأخذ شكل البكاء في كل كلمة وحرف يطلق الكاتب، كما نرى العبارات «فمَن المصريون حقا ومَن الفلسطينيون حقا؟» و«في كل شعب جماعة تنبح وراء» و«ذلك الكلب الذي ينبح» في الفقرة التالية: «عندما احتل الإنجليز مصر وزعوا على الذين أعانوهم على احتلال مصر وكانوا عشرات. لكنهم وضعوا في السجون ثلاثين ألفا من الذين ثاروا مع عرابي غير من ماتوا في الحرب. فمن هم المصريون حقا؟ وعندما جاء اليهود باع لهم بعض الفلسطينيين أرضا وكانوا عشرات. لكن آلافا ماتوا في الثورات على اليهود و في الحرب معهم. فمن الفلسطينييون حقا؟ يا صديقي في داخل كلّ شعب جماعة تنبح وراء من يلقي لها العظمة. وهل تريد ما هو أكثر؟ في داخل كلّ إنسان ذلك الكلب الذي ينبح وإنما المهم أن نخرسه»(م.ن: ۹۲). يذهب بهاء طاهر إلى أنّ العدو القومي والعدو

الصهيوني وأتباعه في خندق واحد وهما وجهان لعملة واحدة إذ كان هولاء الخونة حليفا للاستعمار والصهاينة في مواجهة الشعب الفلسطيني. وهولاء باستغلالهم وانتهازيتهم كانوا بعيدين عن قضية فلسطين وأرضها فلهذا لهم شأن أقلّ مثل الكلب.

١١.٣ التغني بالوطن

« إنّ حبّ الوطن والدفاع عنه غريزة بشرية قد تكون هي الدافع الأهمّ للكثير من شعوب العالم للتضحية و المقاومة»(الكبيسي،لا تا: ١٧). وهو رسالة فنية خالدة في منتوج الشعراء والأدباء، وقد كانت الحرية وعزته في مقدمة القضايا التي تفاعلت الأدباء بها، وعبّروا عنها في آثارهم؛ صرّح الكاتب بالوطن وبلاده في الرواية كافة، فإنّ هذه الإشعار في ترسيخ فكرة الوطن،كانت ثورة على الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية التي خلقها الاستعمار، لذلك يصوّر وعي الوطني للشخصيات الرواية، الذين يحملون أشد المعاناة في سبيل بلادهم، و يموتون بجريمة الغناء لوطنهم، إذ يدفع الإنسان ثمن ما يؤمن به، حيث كانوا مصممين على استمرار طريقهم لتغيير متطلباتهم السياسية لرفعته:« فجأة اختلط صوت الميكرفون بصوت أبواق عربات الشرطة بصوت الطلبة الذي ارتفع وهم يغنون بلادي بلادي»(طاهر: ١٠١).

ويأتي الكتاب بفكرة الوطن مرات عديد في الرواية كلها:« وحين نظرت من شباك الترام رأيت حولي خمسين أو ستين من الطلبة يجرون وهم يضعون كتبهم وأيديهم على رؤوسهم ومن ورائهم العساكر والطلبة يقولون بلادي بلادي والعسكر يضربون ولا هم هنا»(م.ن:٢٥). في الواقع يرسم بهاء طاهر النضال الذي يخوضها أبناءه من أجل تمكين الشعب من نيل حريته واستقلاله باستعمال صيغة الفعل المضارع الذي يدلّ على الاستمرار، وإيمانه بدعم قيم الإنتماء للوطن والمشاركة في مواجهة قضاياه ومساهمتها في المقاومة وتصديّها للاستعمار.

۱۲.۳ إدانة العالم

يقارن بهاء طاهر بين الإسرائيل وفلسطين، وهذه المقارنة تعطي بعدا عميقا للهوة السياسية بين الشعبين. وهذا ناتج عن التمييز العنصري من جانب الدول الغربية التي ترأسها الإسرائيل ويعاني منه الشعب الفلسطيني: «لماذا اهتز الضمير العالمي بهذا العنف لمصرع الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ وصبّ لعناته على الفدائيين الفلسطينيين الذين نفذوا عمليتهم(مع أنهم أيضا قد ماتوا؟) وأين كان هذا الضمير وهذا العنف عندما أغار الطيارون الإسرائيليون الشبان بروح رياضية على الأطفال المصريين في مدرسة بحرالبقر وقتلوا منهم العشرات؟»(م.ن: ۶۲). واضح أنّ الدول الغربية دائما يعتقدون بأنهم هم الدعاة الأساسية لحقوق البشر، لكن هنا أشار كاتب إلى ظلم الإسرائيل على الشعب الفلسطيني وحتّى على الأطفال وصمت الجوامع الدولية في هذا الأمر وردّ فعلهم حسب ميولهم.

في الواقع أنّ الكاتب يتخذ البعد الإنتقادي، وينتقد الشعوب التي تحولون إلى مجرد مشاهدين للأحداث وربما يدافعون عن الصالح الصهيوني لمكانتهم البارزة في الجوامع الدولي، ثم يقول بألا يتغير هذه الأوضاع إلا بحرية بلادهم، الحرية التي تمنح الشعوب الحياة والمكانة: «الضمير العالمي يتحرك حسب الطلب. والطلب دائما في صحف الغرب صهيوني. ولن يشفي هذا المريض العالمي ويتحرك لصالحنا إلا إذا أطلقنا كلّ مدافعنا وحرّرنا كلّ أرضنا»(م.ن: ۶۲). إنّ الأدب مخلوقا مقاوم بامتياز يقاوم ثقافة السلبية والتحلل والانكفاء على الذات ويجاهد من أجل فرض حقائقه المرجعية التي لايمكن إنكارها والتنكُّر لها مهما بعدت ضمن الإجراءات السلبية وهذه الحقائق هي الحق والخير والقيم الإنسانية الخالدة مثل العدل والانصاف والمساواة والتقارب والتفاهم والحوار وبالطبع فإنّ الأديب بثقافته ونبله وإحساسه أول الغيورين على هذه المبادئ وأول المدافعين عنها والمنادين لها كما فعل ههنا بهاء طاهر.

تتسع الرؤية الإنسانية ويصوّر الكاتب الواقع المؤلم الذي يعيش فيه فلسطين دون أيّ مساعدة من جانب الدول العربية: « وأما العرب فهم يخونوننا ويتخلون عنا في كلّ حرب

ومع ذلك فيجب أن نتحملهم لأنّ هذا هو قدرنا»(م.ن: ٨٩). بدأ كثافة توبيخه للعرب في قضية فلسطين، إذ هم يتخلون عنهم، إذا هوجم من جانب الإسرائيل ويخونونهم في كلّ حرب ونضال من جانب الإسرائيل، في حالة أنّ فلسطين ليس قضية محلية، إنما هي قضية إسلامية لكافة العرب حتّى لكلّ مسلم، وقد إلتزم بهاء طاهر من أجل إذكاء روح التعاون وإذكاء الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الأعراب والدعوة إلى الوحدة العربية.

١٣.٣ التضييق الثقافي

إنّ التعليم وسيلة الخلاص الوحيدة لتغيير الظروف الصعبة؛ وإذا هجم بلد من جانب الاستعمار، أول شئ يفعل، هو الخناق الثقافي، و واضح أنّ الناس يثورون على الأحكام الضيقة المتشددة من خلال الوعي، لذلك الغزاة يقضون على كلّ وسائل الإيقاظ والمعرفة، إما في كبت الفعاليات السياسية أو اجتماعية أو في استشهاد الناشطين السياسيين أو ما إلى ذلك، لكن أقوى طريق لإيقاظ الناس، هو الوعي الثقافي وطريق الواحد لمواجهته هو الكتابة ونشره، وقد ظهر هذا العمل على أكمل وجه في هذه الرواية؛ إذا قرّر سمير الكتابة عن فلسطين وكيفية إحتلالها وكفاح الشعب الفلسطيني من نير الاستعمار، أصبح مطاردا من جانب الحكومة وإذ لم يجدوه، أخذوا بإخراج الكتب والمجلات التي تهمهم أو لا تهمهم: «لماذا أخذوا الكتب؟ كانت المجلة هي التي تهمهم وفيها كل ما يريدون، فلماذا أخذوا الكتب أيضاً؟ ما حاجتهم إليها؟»(م.ن: ٧٩). إذ إن المثقفين و الكتّاب هم الذين يشعرون الخطر المحدق بالشعب فهم بكتاباتهم ينشرون مجساتهم ليتحسسوا مكامن الخطر قبل وقوعه وهم يرون وسط الظلام الدامس بصيص النور والأمل فالحكومات المستبده تشعر الخطر من جانب هولاء فتخنق الحصار وتطاردهم ولا تجعل الأرض مكانا آمنا لهم.

۴. النتائج

– تناول بهاء طاهر في أثره الخالد قضية شعبه المصري الذي يواجه التحديات الداخلية والخارجية وتنامي وعي الإنسان و إدراكه بما يحيط به من الظروف وتأثيرها في روح الثورة والتمرد.الحرية والوطن من أهمّ الموضوعات التي عبر عنها بهاء طاهر في روايته، وكلّ عناصر المقاومة التي إتخذها يسير في اتجاه مرافق نحوهما للإبقاء على روح المقاومة في عملية التغيير الاجتماعي والسياسي.

–تكون فلسطين في بؤرة قضايا بهاء طاهر ومركز تؤتر دائم له واتخذ من الشهادة والجهاد والأمل إلى المستقبل لترسيم قضية فلسطين وتعريفها للمصريين.

– يرسم الكاتيب وعيه التاريخي وقضايا احتلال فلسطين على لسان الشخصيات الرواية وعن طريق كلامهم يحرّض العواطف الوطنية والإنسانية للإنهاض والمقاومة وهذ الأمر من نبع عقيدته ولم يكن خطبة حربية وبيانا حزبيا. و الشخصيات التي يتجسدها بهاء طاهر من مختلف أطياف الشعى الفلسطينى من الشباب والنساء والشيوخ ،كلهم لهم الهاجس الوطنى النساء بمظاهراتهن والشباب بمناضلتهم ضد العدو الصهيوني والشيوخ بنصائحهم للشباب وتوجيههم أفضل توجيه.

– المقاومة هي إحدى وسائل الحياة في الدفاع عن نفسها ولانتصفح صفحة إلا ويكون الكلام عن المقاومه والصمود والتحدّي بأبعاده الثلاث أي الوطنى والقومي والفردي إذن المقاومه تحتل حيزا واسعا في الرواية هذه. وأهمّ مظاهرها تتخلص في التحدى والصمود، وترسيم صورة ظلم المحتل والشهادة والأمل إلى المستقبل والاحتفاظ بالتراث والمظاهرات و الاعتصامات والتضامن والاستهزاء من الخونة.

– يعرّي المحتلّ الصهيوني الذي يتظاهر بالديمقراطية والتعامل الحضاري من قيمته ويفضحه بأعماله الهمجية الوحشية و لايكتفي بالتصوير الجامد له ولكنه حدّد الأسباب التي خلّف هذا الاثر.

الهوامش

١. ولد الشاعر المصري بهاء طاهر سنة (١٩٣٥م) في محافظة الجيزة، نشر خمس مجاميع قصصية (الخطوبة«١٩٧٢م»، و بالأمس حلمتُ بك «١٩٨٤م»، أنا الملک جئت «١٩٨٦م»، ذهبت إلى الشلال«١٩٩٨م»، و م أكن أعرف أن الطواويس تطير«٢٠١٠م»)، وستّ روايات(شرق النخيل«١٩٨٥»، وقالت ضحى«١٩٨٥»، وخالتي صفية و الدير«١٩٩١م»، الحب في المنفى« ١٩٩٥م»، نقطة النور«٢٠٠١م»، واحة الغروب«٢٠٠٦م»)؛ (عبدالحميد،١٩٩٣: ١٨٠) هذه الرواية أصدرتها دار المستقبل وتقع في ١٠٩ صفحة وكتب بهاء طاهر قبل ثورة ٢٠١١ م التي أطاحت بنظام مبارك وذكر في الرواية الميدان التحرير الذي كان موطن الثوار ضدّ مبارك ويمكن القول إنّ هذه الرواية من الروايات الاستشرافية التي تنبأت بالميدان التحرير بات موطن الثورة. وأثرت هذه الرواية مع رواية « عمارة يعقوبيان» لعلاء الاسواني في ثورة مصر ٢٠١١ و الوعي الإسلامي في مصر(استادى، ١٣٩٢، روزنامه‌ى خراسان)

٢. في أثناء حرب ١٩٤٨م ارتكب اليهود الصهاينة ٣٤ مجزرة لتنفيذ مخططهم في فلسطين. وكان أبرز المجازر وأشهرها مجزرة «ديرياسين»، وقد قام الصهاينة بذبح وقتل ٢٥٤ رجلا وإمرأة وطفلا (وفي بعض التقديرات٣٦٠) بأسلوب بربري همجي (عوض الله، ٢٠٠٦: ٥٥).

٣. إنّ الإرهاب شكل من أشكال الحروب في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وهو القتل العمد المنظم الذي يهدد الأبرياء ويلحق بهم الأذى، بهدف خلق حالة من الذعر من شأنها أن تعمل على تحقيق غايات سياسية(نجم،لا تا:٥)

٤.نظر بهاء طاهر في هذه الرواية الى ليلى خالد، المناضلة الفلسطينية،(١٩٤٤م) ودورها في مناهضة الصهاينة وهي كانت منتمية إلى مجلس الجبهة الشعبية لتحرير الفلسطين وأقصيت من بلدها حيفا بفعل احتلال الصهاينة.

المنابع

- استادى، محمدجواد.(١٣٩٢).رمان‌هايى براى انقلاب مصر، روزنامه‌ى خراسان، خراسان – مورخ يكشنبه ٠۴/٢٣/ ١٣٩٢شماره انتشار ١٨۴۵٢ literature@khorasannews.com

- أشقر، أحمد.(۲۰۰۵). التوراتيات في شعر محمود درويش من المقاومة إلى التسوية، سورية، ط۱.
- جمعة، حسين.(۲۰۰۹). ملامح في الأدب المقاوم، دمشق: وزارة الثقافة.
-حنفي، حسن.(۱۹۸۱). التراث والتجديد، بيروت: دار التنوير.
- زيدان، رقية.(۲۰۰۹). أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، حيفا: دار الهدى، ط۱.
- طاهر، بهاء.(۱۹۸۵). شرق النخيل ...لو نموت معاً، قاهرة: دار المستقبل العربي.
- عبدالحكيم، عمر(أبومصعب السوري).(۲۰۰۴). دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، عمان: دار اليازوري.
- عبدالحميد، شاكر(۱۹۹۳). الموت والحلم في عالم بهاء طاهر، مجلة فصول، القاهرة، المجلد ۱۲، العدد الثاني، صص۱۸۰-۲۰۳.
- عطية، نعيم.(۱۹۸۳) بهاء طاهر وشرق النخيل، مجلة الإبداع، العدد۸، صص۷-۱۲.
- عوض الله، محمد محمود (۲۰۰۶) القضية الفلسطينية دراسة واقتراحات للحل، غزة: مطبعة الأرقم، ط۴.
- الكبيسي، محمد عياش.(لا تا). من فقه المقاومة والجهاد ،بيروت: دارالتراث.
- كنفاني، غسان.(۱۹۶۸). الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال۱۹۴۸-۱۹۶۸،بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط۱.
- لقان، إبراهيم.(۲۰۰۷). ملامح المقاومة ضدّ الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، قسنطينة: جامعة منتوري.
- مرابط، فتيحة وفريدة مغلاوي.(۲۰۱۱). البنية السردية في رواية لونجة والغول لزهور ونيسي، الجمهورية الجزائرية: جامعة منتوري قسنطينة.
- مرتاض، عبدالملک.(۱۹۹۸). في نظرية الرواية، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- معروف، يحيى و رضا كياني.(۱۴۳۳). «ملامح المقاومة في شعر قيصر أمين بور وعزالدين المناصرة»، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، العدد۱۹، صص۳۱-۴۹.
- المليح حلواني، فادية.(۲۰۰۵). « تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر»، الجزائر، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثامن.
- نجم، سيد.(لا تا). المقاومة والقص في الأدب الفلسطيني، دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع.